الرؤية التوحيديّة وقيم الحضارة الإسلاميّة – قراءة في فكر الإمام الخامنئي دام ظله -

الشيخ شفيق جرادي[١]

مدخل:

منذ اللحظة الأولى لتسنّم الإمام الخامنئي دام ظله أمانة نهج الاقتدار، ذاك النهج الذي ابتعثه الإمام الخميني قدس سره، قرّر سماحته أن يكون الولي الرقيب على مسار النهوض الإسلامي وفق القواعد التي رسمها الإمام الخميني قدس سره. وقد حرص على أن يُحكّم مفهوم الولاية بوصفها الصلة الوثقى بين حكم الله وإرادة الشعب؛ حيث إنّ الولاية بما هي اقتدار تتحوّل إلى فراغ عنفي فيما لو تجاوزت إرادة الشعب وحبّ الناس.

لم يخرج سماحته على منظومة الرؤية الإسلامية الشاملة في بناءاته الناظمة للحكم والسياسة والمجتمع. فقد وضع على رأس هرم الرؤية والبناء النهضوي مبدأ التوحيد كأصل أوحدي، تصدر عنه الأصول والمرتكزات الأخرى؛ حيث أضحى هذا الأصلُ منبع الاقتدار الإسلامي وسرّ ديمومته. ممّا يفرض علينا، ونحن نبحث نهج الاقتدار في مسير النهوض الإسلامي، أن نبدأ من تحديد الإمام الخامنئي دام ظله للتوحيد.

(١) كاتب وباحث من الحوزة العلمية، ومدير معهد المعارف الحكمية في لبنان.

التوحيد الإسلامي وفق رؤية الإمام الخامنئي دام ظله:

انطلق الإمام الخامنئي دام ظله في معالجة موضوعة التوحيد من كون «**هذا المفهوم يشكّل أعمق أسس محتوى الأديان، ولا يناظره مفهوم آخر في عمق اتّجاهه نحو تحرير الإنسان وإنقاذ البشرية المعذّبة على مسرح التاريخ**»(١).

من هنا فإنّ «**الأنبياء عليهم السلام كانوا يطرحون كلّ أهدافهم؛ من خلال شعار التوحيد، كما كانوا يحقّقون تلك الأهداف أو يمهّدون لتحقيقها في أعقاب كفاح ينشب تحت راية هذا الشعار**»(٢).

ومن الملاحظ وفق تعريف مضمون التوحيد وتبيانه وجود صلة وثيقة للتوحيد بحياة الرسالة وأمّة الإسلام؛ فيما توالي وفيما تعادي. لذا، فإنّ اقتصار تقديم التوحيد على الجانب النظري هو تسطيح لهذا المبدأ و«**إنّه لمؤسف حقّاً أن يبقى محتوى التوحيد مجهولًا أو محرَّفًا أو سطحيًّا لا يتجاوز الإطار الذهني**»(٣)، ذلك أن «**التوحيد لا ينحصر في إطار نظرية فلسفية ذهنية، -كما هو الشائع-، بل هو نظرية أساسية حول الإنسان والعالم، ومنهج اجتماعي واقتصادي وسياسي للحياة**»(٤).

إلا أنّ هذا لا يعني إغفال البعد النظري في التوحيد. فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنّه في حرب الجمل قام شخص وسأل الإمام علي عليه السلام عن معنى وحدانية الله تعالى. ولكنّ سؤاله هذا واجه موجة من اعتراض أصحاب الإمام علي عليه السلام، إلا أنّ الإمام عليه السلام لم يعترض عليه، بل أجابهم أنّنا نقاتل لأجل هذا الأمر، (وجوابه هذا كناية عن أنّنا نقاتل الناس ونحاربهم لأجل الدفاع عن المعرفة والاعتقاد الصحيحين)، ثمّ أجابه على سؤاله بالآتي:**

(١) الإمام الخامنئي دام ظله: «روح التوحيد ورفض عبودية غير الله»، نسخة إلكترونية في موقع: http: //www. Leader.ir/tree/index

(٢) م.ن.

(٣) الإمام الخامنئي دام ظله: «روح التوحيد»، م. س.

(٤) م.ن.

إنّ معنى كونه واحداً يتصوّر على معان أربعة:

١- الواحد بمعنى أنّه لا شريك له ولا نظير.

٢- الواحد بمعنى أنّه ليس مركّباً ولا قابلاً للتجزئة والتحليل بالعقل.

٣- الواحد بمعنى أنّه واحد بالعدد في مقابل سائر الأعداد الأخرى، كالإثنين والثلاثة...

٤- الواحد بمعنى أنّه واحدٌ بالجنس... فأمّا المعنيان الأولان فهما صحيحان، ويمكن نسبتهما إلى الله تعالى، بخلاف المعنيين الأخيرين.

يخلص الإمام الخامنئي دام ظله من هذا العرض النظري ليؤكّد أنّ هناك شبهات تثار اليوم في موضوعات التوحيد، وينبغي الردّ والتصدّي لها. ثمّ مباشرة يعود فيرى فيها المنظار العملاني، إذ يقول: «**إنّ النظام الإسلامي مبني على أساس وقاعدة الفكر والعقيدة، وهو قائم وثابت على هذا الأساس المتين، فإذا تزلزل - والعياذ بالله - هذا الأساس؛ سقط بناء النظام وتهدّم. من هنا، فالواجب على الذين لديهم معرفة دينية أن يتصدّوا للردّ على تلك الشبهات**»[1].

ضرورة رعاية الجانب العملاني للتوحيد:

إنّ المبحث النظري بالغ الأهمّيّة في أدبياتنا الإسلامية، وفي نهج الاقتدار الذي يقوده الإمام الخامنئي دام ظله، وهو بهذا المعنى يؤكّد على المعالجة النظرية.

إلا أنّ ما هو مرفوض الاقتصار على الجانب النظري. فمن الضروري رعاية التوحيد العملي في عين الاهتمام بالتوحيد النظري، إذ لا يخفى أنّ «**حياة الإنسان مركّبة من الذهن والواقع، من الفكر والعمل؛ وإذا خضع واحد من هذين الجانبين، -بأجمعه أو بقسم منه-، لأعداء الله، بحيث يصير الذهن إلهيّاً مثلاً، والواقع غير إلهي أو العكس، فإنّ ذلك يُحدث اختلال توازن في الهوية العقدية للموحّد. وهو ما عبّر عنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾**[2]. **وإذا كانت مصادر البحث الكلامي ركّزت**

(١) كلمات مضيئة، ط١، دار العصمة، ٢٠٠٥م، ص ٣١١- ٣١٢.

(٢) البقرة، ٨٥.

اهتمامها على الجانب النظري لموضوعة التوحيد؛ فإنّ الإمام الخامنئي دام ظله في الوقت الذي لم يغفل هذا الجانب، إلا أنّه ركّز اهتمامه على البعد العملي؛ وذلك لخلق التوازن في المفهوم من جهة، وفي شخصية المؤمن صاحب الاعتقاد من جهة أخرى. ومقصودنا بالمؤمن هنا، قد يكون فرداً، أو جماعة، أو نظاماً، ودولة، ومؤسّسة.

وعليه أخذ المبحث عند الإمام الخامنئي دام ظله يتأطّر باتّجاه الكشف عن مكنونات التوحيد في هذه المنظومة، وهو ما يمكن لنا أن نتوافر عليه في رسالته المسمّاة (روح التوحيد، رفض عبودية غير الله)، التي كان قد صاغها قبل انتصار الثورة. ثمّ إنّ أدبيّاته الشفوية؛ من توجيه، ومواعظ، وخطب، وغيرها امتلأت بالإشارة إلى مفاصل التوحيد العملي وأسسه، وصولاً لكشف النظام القيمي لنهج الاقتدار القائم على مبدأ التوحيد، وهو الأمر الذي سمح بالتمييز بين (توحيد الاقتدار) و (توحيد الخمول والعزلة). إذ السمة الثانية للتوحيد هي التي تتعايش مع واقع الظلم والعبودية لغير الله، دونما أيّ تأثّر، أو حميّة في الموقف. وهذا ما يرفضه المنطق الإسلامي ومنهج الحياة الرسولية للنبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام، بل وكلّ السائرين على صراط الإسلام المحمّدي الأصيل.

إنّ إخراج التوحيد من الحياة العملانية والاقتصار فيه على الجانب النظري الذهني يورث الخمول والعزلة عن الحياة الاجتماعية، لذا فإنّ «**فهم التوحيد على أنّه نظرة لما وراء الطبيعة، أو أنّه على أحسن الأحوال أطروحة أخلاقية عرفانية، هذا الفهم لا يتناسب إطلاقاً مع الأيديولوجيا الإسلامية الحيّة التي تنطوي على أطروحة كاملة للحياة الاجتماعية**»[1].

ليس المقصود هنا، نفي الجانب الأخلاقي والعرفاني من حياة الإنسان، فهما يمثّلان العمق المعنوي للأطروحة الإسلامية التوحيدية، لكنّ المقصود أنّ اختصار كلّ الرسالية التوحيدية بهذا البعد هو بمثابة الإنكار لشمولية الأطروحة الإسلامية المتّسعة لكلّ أبعاد الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وهذا

(١) الإمام الخامنئي دام ظله: «روح التوحيد ورفض عبودية غير الله» م.س.

ما يودّ أن يؤسّس له الإمام الخامنئي دام ظله حينما يتحدّث عن التوحيد كأصلٍ بانٍ لكلّ المنظومة أو الأطروحة الإسلامية المحمّدية. فمنذ اللحظة الأولى لطرح التوحيد على المجتمع الجاهلي فهم الجميع ممّن سمع نداء الإسلام أنّه دعوة انقلابية في حياة الفرد والمجتمع على مستوى القيم والنظم، وهذا ما يقتضي تقديم التوحيد كرؤية عامة أجملها الإمام الخامنئي دام ظله في رسالته (روح التوحيد).

ميادين التوحيد عند الإمام الخامنئي دام ظله:

أ- التوحيد على صعيد التصوّر؛ بما يعني من وحدة جميع العالم، وانسجامه، وائتلاف أجزائه وعناصره، ممّا يكشف عن وحدة الخالق المدبّر: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[1]. كما يكشف أنّ للعالم هدفًا يقوم على أساس حساب وانضباط دقيقين، وأنّ لكلّ جزء من أجزاء العالم روحًا ومعنى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[2]. فكلّ ما في الوجود يوحِّد الله طائعاً: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[3].

ب- التوحيد على صعيد الفهم للإنسان: وهو يعني وحدة أبناء البشر وتساويهم في ارتباطهم بالله سبحانه. فالله إله الجميع ولا ميزة لفرد على آخر أو لشعب على شعب إلا بالعمل الصالح والسعي والمثابرة في خدمة الناس؛ التزاماً بأحكام الله -سبحانه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[4].

(١) الملك، ٣.
(٢) الأنبياء، ١٦.
(٣) مريم، ٩٣.
(٤) الحجرات، ١٣.

بناءً على ذلك، فإنّ الله جهّز الناس جميعاً بكافّة إمكانات الرقي والسمو والتكامل.

لذا، فكلّ سيطرة لغير الله على الناس هي نحو من العبودية الممقوتة، والتوحيد يرفض هذا الشكل من الحياة، ويعتبر الإنسان عبداً لله فقط، ويحرّره من العبودية والرضوخ لكلّ نظام، بل لكلّ عامل مسيطر يضع نفسه مكان الله. فالتوحيد يعني التسليم لله وحده، ويستتبع ذلك رفض كلّ سلطة غير سلطة الله، مهما كان شكلها ونوعها: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1].

ج- التوحيد كحاكم على علاقات الإنسان: إنّ الإنسان في الرؤية التوحيدية التي يقدّمها الإمام الخامنئي دام ظله جزء منسجم مع محيط العالم الذي يلفّه ويحويه، وهو في الوقت الذي تتحكّم فيه قوانين هذا العالم، فإنّه يتميّز بقوانين خاصّة تنسجم مع السنن الكونية العامّة. فالإنسان يتمتّع بقوّة إرادة وقدرة اختيار، وعليه أن يطوي طريقه الفطري الطبيعي عن اختيار؛ لأنّه طريق سُمُوّه وكماله؛ وهذا يعني أنّه قادر على الانحراف عن هذا الطريق الطبيعي: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2].

وعليه، فالتوحيد هو دعوة الإنسان للانسجام والتوازن مع قوانين العالم وسننه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[3].

د- التوحيد على صعيد النظم الإنسانية: ومفاده سلب كلّ نظام يستقلّ عن الإرادة الإلهية في إدارة حياة الإنسان. وأنّ الله هو الحاكم في حياة الناس وإدارتها. عليه، فإنّ ولاية الإنسان على الإنسان لو قامت على أساس حقّ مستقل ودون مسؤولية؛ لاستلزمت الظلم والطغيان

(١) يوسف، ٤٠.
(٢) الكهف، ٢٩.
(٣) آل عمران، ٨٣.

والعدوان، الفرد الحاكم والجهاز الحاكم لا يستطيع أن يتخلّص من الانحراف والطغيان والإفراط إلا إذا كانت زمام الأمور معطاة بيد هذا الفرد، أو هذا الجهاز، من قبل سلطة عليا، ضمن إطار مسؤوليات متناسبة. وهذه السلطة العليا في المدرسة الدينية هي الله المحيط بكلّ شيء علماً: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[1]. بناءً عليه، فقد حدّد ضمن هذا القسم التوحيدي جملة مهام ملقاة على كاهل الإنسان، وأمام وجدانه الإنساني، في علاقته مع الناس، على أسس توحيدية، منها:

- أنّ الحكم خاصّ بالله، ينفذه من أرادهم الله. وهم منفذون، وحفظة للقوانين الإلهية: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3].
- أنّ كلّ ما يمتلكه الإنسان إن هو إلا أمانة من الله المالك الأوحد، وضعها بيد الإنسان؛ ليستثمرها فيما يرضي الله، وخدمة الناس، وللاستعانة بها على طريق السموّ والتكامل.
- وظيفة الإنسان في نعم الله وكنوز الأرض هو استثمارها بشكل صحيح وعادل، وفتح مغاليق كنوزها. والناس في هذه الغاية متساوون.
- أنّ وظيفة الموحّد هي كسر صنمية الآلهة المزيّفة، ونزع الأصفاد والأغلال عن نفوس الناس وإراداتهم الخلاّقة.

لذلك، فقد اعتبر الإمام الخامنئي دام ظله أنّ أكثر الناس تضرّراً، وبالتالي عدائية لمنهج التوحيد، هم أكثرهم طغياناً واستكباراً: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[4].

(١) سبأ، ٣.
(٢) الأنعام، ١٤.
(٣) المائدة، ٥٥.
(٤) الصافات، ٣٥.

معالم الاستكبار وفق الرؤية التوحيدية:

يقوم الإمام الخامنئي دام ظله باستعراض عشرات الآيات من كلام الله العزيز بشأن الاستكبار، فيقول: «**نستطيع أن نفهم المستكبر على النحو الآتي: الجناح المسيطر في المجتمع الجاهلي، الماسك،- دون استحقاق-، بزمام السلطة السياسية والاقتصادية، واستمراراً لاستثماره وتسلّطه الجائر يمسك -أيضاً- بزمام الأفكار والمعتقدات المسيطرة على الأذهان، ويعمل بأساليب متنوّعة على ملء الأذهان بأفكار تدفع الأفراد إلى الاستسلام له، وإلى الانسجام مع الأوضاع القائمة، وهذا المستكبر يهبّ لمقارعة كلّ دعوة إلى التوعية، فما بالك إذا كانت الدعوة انقلابية تغييرية**»[1].

وحتى تُستكمل صورة العرض النظري للمستكبرين، -حسب الفهم الخاصّ بالنهج التوحيدي-، فلا بدّ من تحديد من هم المستضعفون وما معنى العبودية...؛ ذلك أنّ أيّ نظام جاهلي ينقسم إلى طبقتين: مستكبرة ومستضعفة.. والدين الذي يتبنّاه الناس في المجتمعات الجاهلية هو الشرك لارتباطهم بآلهة متعدّدة بتعدّد مراكز القوّة والسيطرة التي تستثمر الناس على طريق أهوائها. فالشرك إن هو إلا تأليه أفراد إلى جانب الله أو بدلاً من الله، وبتعبير آخر، هو إيكال أمور الحياة إلى غير الله.

أمّا التوحيد فإنّه يقع في النقطة المقابلة للشرك تماماً: إذ يرفض كلّ هذه الآلهة، ويرفض التسليم لها، بل يقاوم سيطرتها، ويحصّن القلوب من الركون إليها، ويدفع إلى إزالتها وطردها، ويشدّ الكائن الإنساني بكلّ وجوده إلى الله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2]، وفي ذلك التأكيد على «**الإيمان بحاكمية الله وحدها في الحياة، ورفض الآلهة المزيّفة، والارتباط به وحده، وتمزيق كلّ قيود العبودية الأخرى**»[3].

أخيراً، فإنّ مقتضى معنى العبودية حسب النهج التوحيدي، يقول فيه الإمام

(١) الإمام الخامنئي دام ظله: «روح التوحيد ورفض عبودية غير الله» م. س.
(٢) النحل، ٣٦.
(٣) الإمام الخامنئي دام ظله: «روح التوحيد ورفض عبودية غير الله» م. س.

الخامنئيدام ظله: «**نخلص إلى أنّ العبادة في المفهوم القرآني هي: الاتّباع والتسليم والطاعة المطلقة أمام قدرة واقعية أو وهمية، طوعاً ورغبةً، أو كرهاً وإلزاماً، مع الشعور بالتقديس والثناء المعنوي أو دونه. هذه القدرة هي المعبود، وهذا المطيع هو العبد والعابد؛ فمن خلال المفاهيم المتقدّمة يتبيّن معنى لفظة الألوهية، ولفظة الله؛ باعتبارهما تعبيراً عن كلمة المعبود**»[1].

إلى هنا، كنّا مع الإطار النظري للمعالجة المفاهيمية للتوحيد والتوحيد العملي، وما يرتبط به من أفكار وتحديدات تأسيسية رسمها الإمام الخامنئيدام ظله، وكان لها بالغ التأثير في ميادين الحراك النهضوي للمشروع الإسلامي الذي ابتعثه في عالمنا المعاصر الإمام الراحلدام ظله، والذي يقود الإمام الخامنئيدام ظله حراكه وتكاملاته، ويتولّى إدارته ورقابة السائرين عليه.

التوحيد في منظومة المشروع الإسلامي عند الإمام الخامنئيدام ظله:

ينطلق الإمام الخامنئيدام ظله في حديثه عن المشروع الإسلامي من الأسس والركائز التي وضعها الإمام الخميني دام ظله، ويعتبر نفسه في مقام ولايته أنّه المستأمَن على تلك الأسس والركائز. ثمّ إنّه يعتبر أنّ الثورة الإسلامية حينما برق نورها بما صدع به الإمام الخمينيقدس سره، أنارت الطريق المظلم أمام الشعوب المستضعفة. وأنّ أهمّ ما تحمله هذه الثورة هي القيم الإسلامية القابلة للتوسّع والانتشار في عالم الإنسان، والتوق للتحرّر والتكامل.

من هنا، فقد حدّد الإمام الخامنئيدام ظله خمسة مراحل للحراك النهضوي الإسلامي: «**إنّنا قمنا بثورة إسلامية، ثمّ أقمنا نظاماً إسلامياً، ثمّ جاء دور إقامة الدولة الإسلامية، تليها إقامة دول إسلامية، ثمّ تأتي مرحلة قيام الحضارة الإسلامية العالمية، ونحن حالياً في مرحلة الدولة الإسلامية والبلاد الإسلامية**»[2].

إنّ هذا النصّ الذي رسم فيه الإمام الخامنئيدام ظله الإطار العامّ للمنطلق

(١) الإمام الخامنئيدام ظله: «روح التوحيد ورفض عبودية غير الله» م. س.

(٢) الإمام الخامنئيدام ظله، حفل تخريج الطلاب وتحليفهم، في الكلية العسكرية، طهران، ٢٠ شعبان ١٤٢٥ هـ.ق.

والمسار والهدف المتوخّى للمشروع الإسلامي النهضوي يحمل في طياته جملة أمور، منها:

أ- المرحلية الواعية والهادئة التي تحتضن كل التحفّز نحو تحقيق الهدف الإلهي النهائي؛ وهو قيام حضارة الإسلام العالمية. والملفت في هذه المراحل اعتمادها على خطوط النتائج بدل المرحلية في الأساليب؛ وهي الطريقة القديمة التي كانت تعتمدها الحركات الإسلامية قبل نهضة الإمام الخميني قدس سره، والمرحلية في عناوين النتائج تحتوي المرونة في مضمون الأساليب التي يمكن اعتمادها. كما تحتوي على الثقة بالله والنفس، في تحقيق الإنجازات الأكيدة والواضحة.

ب- انقسام المراحل الخمس إلى ثلاث عناوين: اليقظة، والبناء الواعي؛ وهي مراحل ما قبل الدولة، ثمّ مرحلة بناء نموذج، أو نماذج الدولة والحكم الإسلامي، ثمّ في المرحلة الأخيرة الحضارة؛ أي بمعنى آخر: الثورة، والدولة، والحضارة.

ج- إنّ مقتضى الوحدة في سياق هذا الحراك أن تقوم على وحدة القيم والأهداف؛ والسؤال هل هذا هو الحاصل في مسيرة النهضة التي قامت على نهج الاقتدار الذي يقوده الإمام الخامنئي دام ظله ؟

د- ثمّ أخيراً، من حقّ المرء أن يسأل ويستفسر عن موقع مبدأ التوحيد في هذا المسار النهضوي؛ ومقصودنا هنا، التوحيد بالطريقة التي قدّمها الإمام الخامنئي دام ظله ؟

للإجابة، علينا أن نتلمّس بعض الوجوه العامة التي لو التقطناها في نصوص الإمام الخامنئي دام ظله وأدبيّاته لأمكن لنا رسم الإطار العملاني القائم على بناءات وقواعد نظرية، أو مبدأ التوحيد وحاكميّته في الحياة، ومن ذلك قوله:

١- «**علينا أن نسعى إلى تحقيق العدالة والقيم الإسلامية في المجتمع، وأن نخلق من المجتمع مجتمعاً دينيّاً وإسلاميّاً**»[1].

٢- ذهابه إلى أنّ الأصل الذي عنه يصدر المشروع النهضوي الإسلامي

(١) الإمام الخامنئي دام ظله، حفل تخريج الطلاب وتحليفهم، في الكلية العسكرية، طهران، ٢٠ شعبان ١٤٢٥ هـ.ق.

المعاصر إنّما هو فكر الإمام الخميني قدس سره ونهوضه وقيادته، وهو النهج الذي شرح الإمام الخامنئي دام ظله بعض مفاصل أبعاده في بحث مستقل، ذهب فيه إلى أنّ نهج الإمام دام ظله ذو أبعاد.

أبعاد نهج الإمام الخميني قدس سره:

البعد الأول: امتزاج المعنويات بالسياسة...؛ حيث ترى امتزاج السياسة بالعرفان والأخلاق، وكانت جميع مواقف الإمام قدس سره تدور حول محورية الله -عزّ وجلّ-، فقد كان مؤمناً بإرادته التشريعية، وموقناً بإرادته التكوينية، وكان عالماً أنّ الذي يسعى إلى تحقيق الشريعة الإلهية سيُحظى بمساعدة قوانين الخليقة»[1]. واستفاد إمام الأمّة قدس سره من ذلك بأنّ حذف المعنويات عن الجهاز السياسي هو إذلال للشعب.

البعد الثاني: موقع الأمّة الاستثنائي ودورها في حراك الإمام الخميني قدس سره، ممّا شكّل قناعة عند الإمام الخامنئي دام ظله أنّ الديمقراطية الحقيقية هي تلك التي رسمها الإمام الراحل قدس سره. وأنّها تختلف عن الديمقراطية الأمريكية المزيّفة. من هنا، «**فإنّ الذي جاء بالديمقراطية هو الإمام دام ظله، والثورة، ونظامنا الإسلامي**»[2].

البعد الثالث: الرؤية العالمية والشمولية في منهج الإمام قدس سره السياسي؛ «**حيث لم يقتصر نداؤه على الشعب الإيراني فقط، وإنّما تعدّاه إلى جميع الأمّة، بل وكافّة البشرية، وهذه هي الرسالة الملقاة على عاتق المسلم**»[3].

إنّ هذا القول للإمام الخامنئي دام ظله هو تعبير جديد عن فهمه لحضور نهج الإمام قدس سره في كافّة مراحل النهضة الإسلامية...

البعد الرابع: صيانة القيم؛ من خلال تبنّي ولاية الفقيه: «**فقد حاول البعض**

(١) الإمام الخامنئي دام ظله، خلال استقبال الوفود المشاركة في الذكرى ١٥ لرحيل الإمام الخميني قدس سره، طهران، ١٤٢٥ هـ.ق.
(٢) م.ن.
(٣) م.ن.

تعريف ولاية الفقيه بوصفها الحكومة الفردية المطلقة؛ وهذا كذب؛ إذ إنّ ولاية الفقيه، وفقاً لقانوننا الأساس، لا تنفي مسؤوليات الأركان المسؤولة في الدولة. فليس لولاية الفقيه سوى دور هندسة النظام، وحفظ مسيرته من الانحراف.

إنّ هذه المسؤولية [الملقاة على عاتق ولاية الفقيه] الحسّاسة والخطيرة تقوم بدورها على أسس وضوابط دينية، كما تقوم على رأي الناس وإرادتهم، فالمعيار في ولاية الفقيه معنوي، خلافاً للمعايير في النظم الرأسمالية؛ فإنّها مادّية محضة.

فالمعيار في ولاية الفقيه يقوم على العلم والتقوى والدراية، والعلم يستتبع وعياً. والتقوى شجاعة، والدراية مصالح البلاد وشعبها. ولو افتقد متسنّم هذا المنصب واحداً من هذه الأسس؛ سقطت كفاءته، حتى وإن حظي بدعم أفراد الشعب؛ فرأي الناس مؤثّر في إطار هذه الضوابط، ومن جهة أخرى إذا توافرت هذه المعايير في شخص، وتمّ انتخابه برأي الجماهير، عن طريق مجلس الخبراء، لا يمكنه أن يقول قد توافرت فيّ هذه الضوابط، فعلى الناس أن يستجيبوا لي، فحقّ الانتخاب بيد الناس»[1].

حقائق هامّة ينطوي عليها فكر ولاية الفقيه:

إنّ نصّ البعد الرابع «**صيانة القيم**» بالغ الأهمّيّة؛ لما يحوي من الحقائق الآتية:

- إنّ نظام القيم الإسلامي مرتبط على المستوى النظري بمبدأ الولاية بمفهومها الوارد في العقائد والأخلاق والعرفان. ثمّ إنّ هناك قيماً تستظلّ في مبدئية ولاية الفقيه؛ كمضمون يعبّر عن الحاكمية السياسية والاجتماعية، وكناظم لجماعة المسلمين. وهذه المبدئية هي نظام يشمل أركان الجماعة أو الأمّة المسلمة، ولا يقتصر على الفرد وحاكميّته

(١) الإمام الخامنئي دام ظله، خلال استقبال الوفود المشاركة في الذكرى ١٥ لرحيل الإمام الخميني قدس سره، طهران، ١٤٢٥ هـ.ق.

المطلقة، إذ مثل هذه الحاكمية هي على طرف نقيض مع القيم الإلهية، وبالتالي مع المعنى الذي تحمله حاكميّة ولاية الفقيه.

- إنّ مشروعية الولاية لا يمكن أن تكون ذاتية أو إدارية فهي بالأصل نابعة من الدين نفسه، ثمّ إنّها مشروعيّة شعبيّة مرجعها إرادة الناس. لذا، فإنّ الولاية لله أولاها من يتمتّع بمواصفات حفظ هذه الأمانة، وتعيين الشخص القادر على التصدّي لهذه المهمّة، وإن أخذ شكلاً شوريّاً، وإداريّاً، ونظاميّاً؛ من خلال مجلس الخبراء، فإنّ المرجعية النهائية في هذا الاستحقاق التعييني إنّما يعود للناس، ومستوى إيمانهم، وتفاعلهم مع الولي.
- إنّ الدور الفعلي لولي الأمر هو هندسة النظام؛ بمعنى رسم الحيثية الشرعية في إدارة الحكم، وطبيعة النظام، وفق الأهداف الإلهية والمطامح الشعبية والتشريع الفقهي، وهنا ضرورة أن يكون الولي فقيهاً؛ بمعنى صاحب علم ودراية. كما أنّ دوره حفظ المبادئ التي انطلقت منها الثورة، وعلى أساسها بنيت الدولة، ومن روحها ينبع طموح بناء الحضارة العالمية، التي تلحظ شعوب العالم. ولهذا السبب فإنّ التفاصيل في إدارة حركة الأهداف إنّما يقوم بها من هم في موقع المسؤولية من أركان الدولة، أو القيادات الشعبية والحزبية.
- ثمّ إنّ التركيز المفصلي أنّ المضمون الذي تستند عليه الولاية هي نظام قيمي إلهي يقع على طرف النقيض الحضاري للمادّية الرأسمالية، لا بمعنى أنّ الدين لا يولي اهتماماً للجوانب المادّية، بل بمعنى أنّ حركة الدنيا وشؤونها المادية موصولة بغايات إلهية تشكّل روح الحراك الدنيوي. فالقيم الإلهية، من قبيل: العلم، والتقوى، والدراية؛ تستتبع وعياً وفهماً متبصّراً بالوقائع، وشجاعة في التصدّي والصمود أمام المخاطر والزلازل، فمن يتّقي الله يجعل له مخرجاً من كلّ سوء؛ بسبب ثقته واعتماده على الله، ورعاية حكيمة لمصالح البلاد والعباد؛ بسبب الدراية الخيِّرة، التي حثّت القيم الإسلامية على التحلّي بها.

البعد الخامس: العدالة الاجتماعية، إذ إنّ أهمّ ما يميّز المنهج السياسي عند الإمام الخمينيقدس سره هو «**بعد العدالة الاجتماعية، فلا بدَّ لنا في هذا المنهج من جعل العدالة نصب أعيننا في جميع أركان الحكومة وقواها التقنينية والقضائية، وإلغاء الفواصل الطبقية**»[1].

مع هذا البعد الخامس نستكشف الثوابت الخمينية التي عمل – وما زال – الإمام الخامنئيدام ظله على بلورتها وتسييلها في الواقع الحيّ للتجربة الإسلامية النهضوية القائمة على نهج الاقتدار.

٣ – حفظ روح الشهادة في الأمّـة وجعلها معيار صحّة الاقتدار المباشر وسلامته على مستوى القوّة العسكرية، أو النهوض الاقتداري ببقية مرافق بناء الحضارة الإسلامية؛ من العلم، والسياسة، والاقتصاد، وغير ذلك. وفي هذا الصدد يقول سماحتهدام ظله: «**إنّ قضية الشهادة قضية عميقة ومهمّة جداً، وشعبنا حلَّ هذه القضية عمليّاً بإيمانه ومشاعره الدينية وشجاعته... ولو أردنا عرض قضية الشهادة وأهمّيّتها في جملة واحدة لقلنا: إنّ الاعتقاد بالشهادة والإيمان بعظمة الشهداء يمثّل بالنسبة لأيّ شعب العمق المعنوي لشخصية ذلك الشعب وهويّته. فكيف يمكن لشعب أن يُعرَف بالعظمة في أعين شعوب العالم؟ وكيف يمكن للشعب بدل أن يتأثّر بشتّى العوامل السياسية في العالم أن يترك تأثيره في جميع الأحداث في العالم؟ وكيف يمكن للشعب بلوغ هذه المكانة؟**

حينما يتقبّل شعب بجميع أبنائه وشبابه وآبائه وأمّهاته الإيثار في سبيل الله، والتضحية بالنفس في سبيل الهدف الإلهي، ويؤمنون به؛ فسوف يكتسب هذا الشعب عمقاً هائلاً من العظمة. ومن الطبيعي أن يكون هذا الشعب مقتدراً وقويّاً ومتفوّقاً من دون أن يكون له سلاح، ومن دون أن يمتلك ثروة نقدية مميّزة».

ويخلص سماحته من كلّ ذلك ليقول: «**إنّ النصر منوط باقتدار لا يتأتّى بالمال والإمكانيات المادية والسلاح النووي، إنّما ينبع من الإيمان بالشهادة،**

(١) الإمام الخامنئيدام ظله، خلال استقبال الوفود المشاركة في الذكرى ١٥ لرحيل الإمام الخمينيقدس سره، طهران، ١٤٢٥ هـ.ق.

والإيثار، والاعتقاد بأنّ الإنسان حينما يضحّي إنما يتاجر ويتعامل مع الله»[١].

أكتفي هنا بهذه النقاط الثلاث رغم إمكانية حشد الكثير من الشواهد والنصوص التي توضح بما لا يقبل الشكّ حفظ المعنوية المبنيّة على مبدأ التوحيد في كلّ سياق الفهم، والعمل الذي أرساه سماحته، لكنّي أودّ أن أطوي هذه المرحلة من الكلام بذكر نصّين يحدّد من خلالهما ارتباط التوحيد المعنوي في حركة المجاهد، وفي حياة صاحب أيّ مهنة وعمل يريد به وجه الله...

النص الأول: «**إنّ التعبوي هو الذي يهتمّ بقيم الإسلام، ويعتقد بالله ويخضع لأوامر ربّ العالمين، وهو الصالح المليء قلبه بالخير والصلاح، والمطهّر من الرذائل، وهو الذي يرغب أن يزيد أنسه بالله دوماً... التعبوي هو همّة عالية، ويسعى لأجل سمو البلد ورفعته، وهدفه إنقاذ البشرية، والقضاء على الفساد والفقر والظلم والتمييز العنصري والتسلّط، وهو يرفض العيش تحت المظلة الأمريكية، وهو ذلك الإنسان الذي يهمّه من يحكم بلده**»[٢].

من المعروف الحجم الكبير الذي يوليه نهج الاقتدار بإمامة الخامنئي دام ظله للمقاومة والتعبئة، ومن المعروف سعة الرقعة التي يشملها عنوان التعبئة والتعبوي، بحيث تضمّ كلّ شرائح الشعب. من هنا، فإنّ تعريفه للتعبوي يساوي تعريفه للفرد المنضم إلى أمّة نهج الاقتدار. فالتعبوي هو المتحلّي بقيم الإسلام القائمة على الاعتقاد بالله، والعمل على طاعته، وخدمة عباده، وإعمار بلاده.

وهو المرتبط بقضايا الحياة الأساسية، يرفض التبعية لأمريكا؛ لأنّها الخصم الحضاري لحضارة قيم الاقتدار الإسلامية، وهو الواعي الذي يرسم الحياة السياسية للبلد الذي يحيا فيه؛ باعتباره الوطن الذي ينتمي إليه، ويمكنه التأثير الفاعل في مجرياته.

النص الثاني: وهو يرتبط بالحياة المدنية-الوظيفية (المهنة)؛ بحيث يصبح العامل في أيّ مهنة جزءًا من المشروع التوحيدي العامل على نهوض

(١) الإمام الخامنئي دام ظله، من كلمته في عوائل الشهداء والمعوقين قم المقدّسة، ٢٠١٠/١٠/٢٠م.
(٢) الإمام الخامنئي دام ظله، كلمة بحضور قادة الجيش، ٢٠ ذي الحجة ١٤١٨ هـ.ق.

الأمّة؛ بمقتضى نهج الاقتدار؛ «**إنّها لمفخرة كبرى أن يشعر المرء في أجواء المهنة التي يحترفها أنّه يعمل لغايات إلهية، وللدفاع عن هويّته، وشخصيّته، وعن استقلال شعب يعيش في عالم يملؤه الظلم**»[(١)].

ملامح التوحيد في مسار الحياة الإنسانية:

يذهب الإمام الخامنئي دام ظله إلى أن الإنسان هو المخوَّل تكوينيّاً رسم مسار حياته، وأنّ الإرادة والاختيار اللتين أولاهما الله –سبحانه- إياه هي مصدر صناعة قدر الإنسان. لكنّ مقتضى نجاح الإنسان في نتائج اختياراته ينبغي أن ترتبط بمبدأ التوحيد وتجلّياته على مسرح حياة الإنسان. وبهذا الصدد يقول سماحته قدس سره: «**إنّني ذكرت بالنسبة لمفهوم القدر أنّ الاختيار بيدكم، وهذا ممّا لا شكّ فيه، لكن مع ذلك، لا بدّ أن تأخذوا دور الهداية والتوفيق الإلهي بنظر الاعتبار، فقد يُصاب أحدكم بالتعب أثناء الطريق فيستمدّ العون من الله، فيستجيب الله له ويمدّه بالقوّة؛ فيواصل السير، وتارة يتردّد بالاختيار؛ فيطلب الهداية من الله؛ فيهديه**»[(٢)].

لذا، ينبغي للمرء في حياته الرسالية والجهادية أن يربط نفسه بالمدد والهداية الإلهية التي منها تنبعث معالم القدرة، ومظاهر نهج الاقتدار. بحيث يمكن لنا القول: إنّ المسلم الرسالي، ـــحسب نهج الاقتدارـــ، سواءً أكان في حال الثورة، أم بناء الدولة، أم صناعة الحضارة، فإنّ عليه استدامة الارتباط والصدور عن المبدأ التوحيدي في كلّ حياته العملية والروحية، وإنّ مثل هذه الميزة المبنية على القيم الإسلامية هي التي تميِّز الحضارة الإسلامية عن الحضارة المادية، «**فهناك اختلاف بين الأعمال العسكرية في الثقافة المادّية، وبينها في الثقافة الإسلامية، حيث إنّها لا تعني في المنظار المادي سوى العنف والقسوة والطاعة العمياء، وأنّها أداة بيد الطامعين... في حين أنّ**

(١) الإمام الخامنئي دام ظله، كلمة بحضور قادة الجيش، ٢٠ ذي الحجة ١٤١٨ هـ.ق.

(٢) الإمام الخامنئي دام ظله، كلمة خلال لقاء الشباب والأساتذة الجامعيين، همدان، ٧تموز ٢٠٠٤م.

العمليات العسكرية في المنظار الإسلامي تختلف عن ذلك تمام الاختلاف، حيث إنّها تجسيد للمفاهيم الإنسانية، ودفاع عن القيم الصالحة، مصحوب بالوعي والمعرفة، وهذا الدفاع يعني حمل الأرواح على الأكفّ، وترويض النفس على التضحية والفداء، وأنّ هذا الدفاع يكون من أجل أسمى القيم الإنسانية والإلهية...

لذا، يُعدّ العمل العسكري في المنظار الإسلامي (جهاداً)، فإنّ الجهاد مأخوذ من بذل الجهد والسعي في سبيل القيم العليا، ومن هنا، جاء في الحديث: «**إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة**»[1].

وما ذلك إلا لأنّ الإسلام دين نهج الاقتدار، فهو دين التوحيد الكامل، ولو أردنا أن نتعرّف إلى القيم الإسلامية البانية لحضارته فما علينا إلا أن نتعرّف على بعض التحديدات التي تناولها الإمام الخامنئيدام ظله فيما يخصّ القيم التوحيدية، فالتوحيد يعني:

١- خلاص الإنسان من العبودية والطاعة لغير الله.
٢- تحطيم كلّ قيود النظام السلطوي.
٣- كسر سرّ الخوف من القوى الطاغوتية.
٤- الاعتماد على الطاقات التي أودعها الله في الإنسان.
٥- الاعتماد على الوعود الإلهية بانتصار المستضعفين.

أمّا على مستوى القيم الفردية، فالتوحيد يعني:

١- التعلّق القلبي بالرحمة الإلهية، وعدم الخوف من احتمال الهزيمة.
٢- مواجهة كلّ المصاعب والأخطار التي تهدّد الإنسان في طريقه؛ لتحقيق الوعود الإلهية، بصدر رحب.
٣- تحمّل مشكلات الطريق في سبيل الله، والأمل بالنصر النهائي.
٤- تركيز الأحداق على الهدف السامي، وهو خلاص المجتمع من كلّ ظلم وتفرقة، أو جهل، أو شرك.

(١) الإمام الخامنئيدام ظله، كلمة خلال لقائه بقراء القرآن الكريم، طهران، ١شهر رمضان ١٤٢٥ هـ.ق.

٥- أن لا يطلب المرء في كلّ ذلك إلا الأجر الإلهي في قبال المصاعب الشخصية[١].

بمثل هذا الأفق المفتوح على عالم من قيم الاقتدار الإنساني والحضاري رسم الإمام الخامنئي دام ظله تأثيرات التوحيد في حياة الإنسان الفردية والرسالية العامّة. وعمل على أن يضخّ كلّ ذلك في وشائج المؤسّسات الخاصّة بالدولة والمجتمع، بحيث كانت هذه المعنوية السارية في كلّ مفاصل البناء الرسالي هي صمّام الأمان؛ لحفظ الأمانة الإلهية، وهي الدافع نحو تحقيق الأهداف المتوخاة، التي هدى الله سبحانه إليها. وأنّ كلّ قراءة لمسارات الحراك النهضوي على مستوى الشعوب، أو مسار الدولة الإسلامية في إيران الإسلام مع عدم الاستناد إلى مثل هذه المبدئية، فإنّه بحقيقة الأمر مفارقة للواقع الصانع لوقائع هذه المسارات، والتحوّلات، والأحداث.

(١) الإمام الخامنئي دام ظله، الإسلام المحمدي، ط١، إعداد وتنظيم مهدي علاء الدين، دار الولاء، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٢١.